والرجف : الاضطراب والاهتزاز وفعله من باب نصر . وظاهر كلام أهل اللغة أنه فعل قاصر ولم أر من قال : إنه يستعمل متعديا فلذلك يجوز أن يكون إسناد (ترجف) إلى (الراجفة) حقيقيا فالمراد ب (الراجفة) : الأرض لأنها تضطرب وتهتز بالزلازل التي تحصل عند فناء العالم الدنيوي والمصير إلى العالم الأخروي قال تعالى (يوم ترجف الأرض والجبال) وقال (إذا رجت الأرض رجا) وتأنيث (الراجفة) لأنها الأرض وحينئذ فمعنى (تتبعها الرادفة) أن رجفة أخرى تتبع الرجفة السابقة لأن صفة (الراجفة) تقتضي وقوع رجفة فالرادفة رجفة ثانية تتبع الرجفة الأولى .

ويجوز أن يكون إسناد (ترجف) إلى (الراجفة) مجازا عقليا أطلق (الراجفة) على سبب الرجف .

فالمراد ب (الراجفة) : الصيحة والزلزلة التي ترجف الأرض بسببها جعلت هي الراجفة مبالغة كقولهم : عيشة راضية وهذا هو المناسب لقوله (تتبعها الرادفة) أي تتبع تلك الراجفة أي مسببة الرجف رادفة أي واقعة بعدها .

ويجوز أن يكون الرجف مستعارا لشدة الصوت فشبه الصوت الشديد بالرجف وهو التزلزل .

وتأنيث (الراجفة) على هذا لتأويلها بالواقعة أو الحادثة .

و (تتبعها الرادفة) : التالية يقال : ردف بمعنى تبع والرديف : التابع لغيره قال تعالى (أني ممدكم بثلاثة آلاف من الملائكة مردفين) أي تتبع الرجفة الأولى ثانية فالمراد : رادفة من جنسها وهما النفختان اللتان في قوله تعالى (ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا ما شاء ا ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون) .

وجملة (تتبعها الرادفة) حال من (الراجفة) .

وتنكير (قلوب) للتكثير أي قلوب كثيرة ولذلك وقع مبتدأ وهو نكرة لإرادة النوعية .

والمراد : قلوب المشركين الذين كانوا يجحدون البعث فإنهم إذا قاموا فعلموا أن ما وعدهم الرسول A به حق توقعوا ما كان يحذرهم منه من عقاب إنكار البعث والشرك وغير ذلك من أحوالهم .

فأما قلوب المؤمنين فإن فيها اطمئنانا متفاوتا بحسب تفاوتهم في التقوى .

والخوف يومئذ وإن كان لا يخلو منه أحد إلا أن أشده خوف الذين يوقنون بسوء المصير ويعلمون أنهم كانوا ضالين في الحياة الدنيا .

والواجفة : المضطربة من الخوف يقال : وجف كضرب وجفا ووجيفا ووجوفا إذا اضطرب .

و (واجفة) خبر (قلوب) .

وجملة (أبصارها خاشعة) خبر ثان عن (قلوب) وقد زاد المراد من الوجيف بيانا قوله (أبصارها خاشعة) أي أبصار أصحاب القلوب .

والخشوع حقيقته : الخضوع والتذلل وهو هيئة للإنسان ووصف الأبصار به مجاز في الانخفاض والنظر من طرف خفي من شدة الهلع والخوف من فظيع ما تشاهده من سوء المعاملة قال تعالى (خشعا أبصارهم) في سورة اقتربت الساعة . ومثله قوله تعالى (ووجوه يومئذ باسرة) .

وإضافة (أبصار) إلى ضمير القلوب لأدنى ملابسة لأن الأبصار لأصحاب القلوب وكلاهما من جوارح الأجساد مثل قوله (إلا عشية أو ضحاها) .

(يقولن أإنا لمردودون في الحافرة [10] إذا كنا عظاما نخرة [11]) استئناف إما ابتدائي بعد جملة القسم وجوابه لإفادة أن هؤلاء هم الذين سيكونون أصحاب القلوب الواجفة والأبصار الخاشعة يوم ترجف الراجفة .

وإما استئناف بياني لأن القسم وما بعده من الوعيد يثير سؤالا في نفس السامع عن الداعي لهذا القسم فأجيب ب (يقولون أئنا لمردودون في الحافرة) أي منكرون البعث ولذلك سلك في حكاية هذا القول أسلوب الغيبة شأن التحدث عن غير حاضر .

وضمير (يقولون) عائد إلى معلوم من السياق وهم الذين شهروا بهذه المقالة ولا يخفون على المطلع على أحوالهم ومخاطباتهم وهم المشركون في تكذيبهم بالبعث .

والمساق إليه الكلام كل من يتأتى منه سماعه من المسلمين وغيرهم .

ويجوز أن يكون الكلام مسوقا إلى منكري البعث على طريقة الالتفاف .

وحكي مقالهم بصيغة المضارع لإفادة أنهم مستمرون عليه وأنه متجدد فيهم لا يرعوون عنه .

وللإشعار بما في المضارع من استحضار حالتهم بتكرير هذا القول ليكون ذلك كناية عن التعجيب من قولهم هذا كقوله تعالى (فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط) .

وقد علم السامع أنهم ما كرروا هذا القول إلا وقد قالوه فيما مضى